موقف شوقي ضيف من شعراء الشّيعة دعبل الخزاعي أنموذجاً

Shawqi Dhaif's position on Shiite poets - Dabal Al-Khuza'i as an example

طارق صبّار كريم

جامعة الأديان والمذاهب كلية اللغات والثقافات الدولية

الدكتور: محمد علي حاج علي بور

جامعة الأديان والمذاهب كلية اللغات والثقافات الدولية

Tariq Sabbar karim

University of Religions and Sects Faculty of International Languages and Cultures

Dr. Mohamed Ali Haj Alipour

University of Religions and Sects Faculty of International Languages and Cultures

ملخص

حمل أدباء الشّيعة وشعراؤها لواء الدّفاع عن مذهبهم الدّيني على مرّ العصور، ومثّلوا ذلك في شعرهم أصدق تمثيل، وقد كثُر شعراء الشّيعة في العصر العبّاسي، وأهمّهم: دعبل الذي صاغ شعراً مميّزاً في الأسلوب والمضمون، إلا أنّ بعض النّقّاد كان لهم رأي آخر في شعره؛ فراحوا يفنّدون ما فيه من أفكار وموضوعات، ولم يكونوا منصفين في رأيهم، ومنهم النّاقد الدّكتور شوقي ضيف، الذي انطلق من خلفيّة دينيّة وعقيديّة مناوئة للشّيعة، ولهذا اخترت هذا البحث بعنوان (موقف شوقي ضيف من دعبل الخزاعي) الذي حاول تفنيد آراء شوقي ضيف حول دعبل الخزاعي، وشكّك في شيعيّة دعبل، وجعلها محاولة منه للكسب المادّي، طاعناً في ولائه ومحبّته الواضحة والصّريحة والتي لا تقبل الشّك لعليّ وآل البيت عليهم السّلام.وقد عمد البحث إلى نقض هذه الآراء وغيرها، وبيان حقيقتها وإثبات ذلك بالأدلّة العلميّة، والمنهجيّة الصّحيحة.الكلمات المفتاحيّة: شوقي ضيف، دعبل الخزاعي، الشيعة، المدائح الدّينية، الهجاء الدّيني.

summary

Shiite writers and poets have carried the banner of defending their religious doctrine throughout the ages, and they represented it in their poetry in the truest way. There were many Shiite poets in the Abbasid era, The most important of them: Dabal, who wrote poetry distinguished in style and content, but some critics had a different opinion about his poetry. They began to refute the ideas and topics in it, They were not fair in their opinion, including the critic Dr. Shawqi Deif, who came from a religious and ideological background opposed to the Shiites, That is why I chose this research entitled (Shawqi Dhaif's position on Da'bal al-Khuza'i), which attempted to refute Shawqi Dhaif's opinions about Da'bal al-Khuza'i.He doubted Dabal's Shiism and made it an attempt to gain material gain, impugning his loyalty and clear, frank and undoubted love for Ali and his family, peace be upon them, The research sought to refute these and other opinions, clarify their truth, and prove this with scientific evidence and correct methodology.**key words:**Mawqif, Shawqi Dhaif, Dabal Al-Khuzai, Shiites, religious praise, religious satire.

مقدمة:

يتميّز الأدب الشّيعي عن غيره من الأدب بحمله لقضايا وعقيدة الشيعة، ودفاعه عنها، وقد دُرس هذا الأدب في مؤلّفات كثيرة خُصّصت له، وتناوله بعضهم في ثنايا كتبهم، وكان لكلّ رأيه، وممّن درس شعر الشّيعة في كتبه شوقي ضيف، إلا أنّه لم يكن في دراسته لهم متجرّداً عن الأهواء، أو متّبعاً منهجيّة علميّة، فقد أصدر آراءه حولهم متأثراً بمذهبه الدّيني، ومعتقداته، ولهذا جاء هذا البحث بعنوان (موقف شوقي ضيف من شعراء الشّيعة –دعبل الخزاعي أنموذجاً).وقد توزّعت الدّراسة على تعريف بالشّاعر دعبل الخزاعي، والنّاقد شوقي ضيف، ومن ثمّ (موقف شوقي ضيف والنّقّاد من دعبل الخزاعي)، هذا الشّاعر الشّيعي الذي جاهر بانتمائه لآل البيت عليهم السّلام، ومحبّته إيّاهم، إلا أنّ شوقي ضيف شكّك في تشيّعه، وادّعى أنّ دعبل كان منافقاً حين أظهر ولاءه لآل البيت عليهم السّلام طمعاً فيما يناله من عطايا، وذلك في موقفه من مدحه الدّينيّ، وهجائه الدّيني، فقد شكّك في أساس هذه الموضوعات ولاسيّما ما يتعلّق منها بالتّشيع، وآل البيت عليهم السّلام، كالمدائح النّبوية، وهجاء أعداء الشّيعة، مدّعياً أنّ موضوعاته هذه لا تعدو أن تكون غرضاً شعريّاً لا ينطلق من عقيدة دينيّة راسخة في نفس الشّاعر، وانتهى البحث بخاتمة وثبت للمصادر والمراجع. وقد اعتمد البحث منهج النقد الثقافي في الدّراسة.أمّا هدف الدّراسة فكان إنصاف الشّاعر دعبل الخزاعي، والرّدّ على المُشككين فيه.

التّعريف بدعبل الخزاعي:هو دعبل بن علي الخزاعي أحد الشّعراء المتميّزين في العصر العبّاسي الأوّل، ومن الشّعراء الذين ملؤوا الأرض مدحاً لآل البيت عليهم السّلام، وقدحاً في خلفاء بني العبّاس، اختلف المؤرّخون في نسبه واسمه ومكان ولادته، واتّفقوا في لقبه (دعبل) ذكر له صاحب الأغاني نسباً واحداً وهو " دعبل بن علي بن سليمان بم تميم بم شل بن خداش بن خالد بن عبد بن دعبل بن أنس بن خزيمة بن سلامان بن أسلم بن أقصى بن حادثة بن عمرو بن عامر مزيقياء، نشأ دعبل في بيت من بيوتات الشّعر "[١]، فدعبل الخزاعي شاعر مشهور، " عمّر طويلاً وعاش في عصر ازدهرت فيه الثّقافة، وانتشر العلم وكثرت مجالس الأدب.. ولد في الكوفة لكنّه قضى الشّطر الأكبر من حياته في بغداد، وقد عاصر وشهد ثورات العبّاسيين والعلويين من شيعة وخوارج، ومن خارجين على نظام الحكم، وقد اتّخذ منذ نشأته الأولى مبدأ سار عليه، ولم يحد عنه طوال عمره، وهذا المبدأ يقوم على مناصرة آل البيت وإبراز حقّهم في الخلافة "[٢]، فكان شاعراً شيعياً بامتياز، ومن الحريّ إبراز ما جاد به الدّارسون في شأن تاريخي الولادة والوفاة للشّاعر دعبل الخزاعي. وفيما يخصّ ولادته فإنّ التّاريخ الأدقّ لولادته ما جاد به ابن أخيه ويدعى إسماعيل حين بيّن أنّ عمّه دعبل ولد في الكوفة أيّام خلافة المنصور أبي جعفر سنة ١٤٨ هـ، وهذا التّاريخ وجدناه حين تصفحنا كتب معاصريه، لكن ابن حجر العسقلاني أثبت أنّ ولادة الشّاعر سنة ١٤٢ هـ، وليس كما قال إسماعيل ١٤٨

هـ، ومعظمهم أكّدوا ولادته في الكوفة، لكنّ الصّولي قال بأنّه ولد في قرقيسيا، وابن العديم قال بأنّه ولد في واسط، وهذا المولود الذي عاش ما يقارب مئة عام كان ابن التّنقّل والتّرحال فمات مقتولاً بالسّم ، وأجمع كثيرون على أنّه توفي (٢٤٦ هـ) ورأى الذّهبي والعسقلاني من غير أن يحدّدا عام الوفاة بأنّه عاش نحواً من تسعين عاماً، واليافعي قال بأنّه توفي ٢٤٤ هـ، ومثله قال الشّيخ الصّبري، وهي أضعف الرّوايات [٣]. و" تلقّف أبجديّة الشّعر وأصوله، وتعلّم القراءة والكتابة في مساجد وكتاتيب الكوفة، وتنقّل بين أندية علمائها، واحتكّ بأستاذه مسلم بن الوليد الشّاعر (ت ٢٠٩ هـ) حتّى استقام عوده الشّعري، وعاصر دعبل العديد من خلفاء بني العبّاس وهجاهم كلّهم أجمعين، ثمّ قتل بمنطقة السّوس بعكّاز مسموم ؛ إذ مات من إثرها في فجر اليوم الموالي سنة ٢٤٦ هـ " [٤]، ونجد أنّه لم يكن على علاقة جيّدة مع هؤلاء الخلفاء العبّاسيين، بل خاصم كلّ من عادى آل البيت، وهذا يعكس شخصيّة قويّة جريئة اتّصف بها، فهو صاحب كلمة واضحة جريئة لا يهاب بنطقها أي أحد، وربّما يعود هذا الأمر إلى انتمائه العقائدي المتين، وتضافر هذا الانتماء مع شخصيّته الصّارمة.لقد رهن الشّاعر الشّيعي حياته وهو يدافع عن آل البيت بكلّ صدق وانفعال، ومن يدافع عن جهةٍ ما من الطّبيعي أن يهاجم أعداء هذه الجهة، وكلّ من سبّب لآل البيت الأذى والإساءة أياً كان موقعه ومكانته ومستواه حتى لو كان خليفة أو وزيراً أو صاحب سلطة.كان دعبل الخزاعي يجيد التّأمّل في الزّوايا السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة، ساعياً بكلّ جهده إلى غور التّفاصيل العميقة للأشياء، ومن يقرأ شعره جيّداً يلاحظ استهزاءه بالأوضاع السّياسيّة في العصر الذي عاش فيه؛ إذ نجد دعبل صاحب منهج فكري ولغوي، يلائم التّربة الخصبة التي نشأ منها.وحين نتحدّث عن جذور دعبل الدّينيّة فنحن نضيء دوره في الحياة الدّينيّة في العصر العبّاسي، الذي كان عهداً يمثّل انقلاباً جذريّاً مثل حركة اشتركت فيها المبادئ الدّينيّة والأهداف السّياسيّة والدّوافع الاجتماعيّة، وقد نجحت هذه الحركة في ضمّ جل عناصر التّذمّر في المجتمع العربي، فكانت نهاية عصر بائد، وفاتحة عصر جديد ، وقد لعب الموالي الفرس دوراً بارزاً في إقامة الدّولة لأنّهم كانوا حاقدين على الأمويين، للظّلم الذي شعروا به، فتمثّل في عدم إنصافهم مع إخوانهم العرب المسلمين ؛ لذا فإنّ الدّعوة العبّاسيّة قامت على فكرة إسقاط الخلافة الأمويّة وجعلها في البيت الهاشمي، فدعوا إلى إمام رضا من آل البيت، وظلّت هذه الدّعوة شعاراً، فأصيبوا بخيبة أمل حين بويع أبو العبّاس السّفاح بالخلافة [٥]، وهذه الخيبة تركت آثاراً جمّة في أعماقهم.ودعبل الخزاعي كقومه لم يرضخ للذّل أو الظّلم أو الحكم، ولم يستطع أن ينطوي تحت لواء الخلفاء العبّاسيين ، بل كان يداً مسهمة في إشعال جذوة المقاومة ضدّ آل عبّاس كلّهم بما فيهم الخلفاء، وزعزعة أركان خلافتهم، لكن دون جدوى، لكن شكّل دعبل وقومه حركة مناوئة لنظام الحكم وخلفائه، وخرجوا عن محاولات العبّاسيين باستقطابهم. فالشّاعر دعبل كان علماً من الأعلام الذين ذاع صيتهم في البلاد في مرحلة الحكم العبّاسي، وانتشرت قصص مقاومته وبطولاته ضدّ خلفاء بني العبّاس، وفي الوقت ذاته وجدناه صوتاً شعريّاً مجيداً، اعترف به أعداؤه ومناصروه، إنّه الصّوت الشّعري الصارخ بوجه الأحوال التي مرّت بها بغداد والعراق في فترة الخلافة العبّاسيّة.ويدرك تماماً من أين تؤكل الكتف، وهذا ما تبرزه حركاته وتصرّفاته المدروسة دراسة دقيقة، فلا تراه يخوض سجالاً أعمى، ولا يحاول أبداً أن يمشي وهو مغمض العينين تسوقه الأقدار حيث تشاء، بل أراد أن يبني عالماً خاصّاً به، وهذا ما فعله فأجاد في فعله، ودليل ذلك أنه تولى على ولايتين.لقد نشأ الشّاعر دعبل الخزاعي في خضمّ تطوّرات وأحداث جرت أمام ناظريه بكلّ ما فيها من ثورات وتغيّرات وصراعات واضطرابات، فكان شخصاً فاعلاً وسط كلّ هذه التّغيّرات، وهذا ما أفصح عنه كل شطر شعري من قصائده التي كانت مرآة عكست تفاصيل ذلك العصر الذي كثرت فيه تطوّرات الزّراعة والتّجارة والعمران وكلّ المجالات، ومن الجميل أن تترك الحياة الاجتماعيّة أثرها في شعر المبدعين ؛لأنّنا سنحصل على صورة واضحة لمكوّنات ذلك العصر اجتماعيّاً، وأثر البيئة المحيطة بإبداع الشّاعر ؛ لأنّ الإبداع انبثاق من جذور واقعيّة يلوّنها الشّاعر بخياله ورؤاه بما يراه مناسباً. وتأثّر دعبل الخزاعي بتلاحق الثّقافات وتلاقحها معاً، فكان لوناً من ألوان الثّقافة الإسلامية، وشعاعاً من إشعاعاتها الفكريّة، حيث كانت في تلك المرحلة إشعاعات متنوّعة، ولاسيّما أنّ العصر العبّاسي كان حاضنة لحركات فكريّة كثيرة. واللافت للانتباه اختلاف النّاس المهتمين بتاريخ وفاته وولادته واتّفاقهم جميعاً على تشيّعه وحبّه آل البيت وأثره في الحياة السّياسيّة والفكريّة والاجتماعيّة في عصره، وقدرته الفذّة على نظم أشعار ترهف لها الآذان وتطرب لها المسامع وتتأثر بها الألباب والأعماق. لقد انتقلت إلى دعبل الخزاعي ما عرفت به أسرته من فضائل وخصال حميدة ومكانة ومكرمات حصلوا عليها بسبب تأييدهم الإسلام، وموالاتهم آل البيت عليهم السّلام، فاستمدّ كثيراً من الفصاحة وامتلأ بالشّاعريّة ، وكان قادراً على تجسيد نوافذ حياتيّة مختلفة عاشها النّاس في العصر العبّاسي.

التّعريف بشوقي ضيف:لكلّ عصرٍ أدباؤه وقرّاؤه ونقّاده، وشوقي ضيف نجم سطع في ميدان الأدب العربي، وشعّ إبداعه بما امتلك من أدوات قرائيّة كانت عوناً له في سبر النّصوص الأدبيّة، والوقوف على إبداعات الأدباء، فمن شوقي ضيف ؟ هو " أحمد شوقي عبد السّلام

ضيف، كاتب وناقد من دولة مصر، ولد في مدينة دمياط في مصر، بتاريخ ١٣ / يناير عام ١٩١٠م، وقد تلقّى علومه الأولى في مسقط رأسه، وفي جامع الأزهر، وفي دار العلوم. وحاز شوقي ضيف على شهادة ليسانس في الآداب من جامعة القاهرة عام ١٩٣٥م ؛ إذ نال المرتبة الأولى آنذاك، وكان موضوع بحث الماجستير خاصّته: (النّقد الأدبي في كتاب الأغاني للأصفهاني)، وبعدها حصل على الدّكتوراه بمرتبة الشّرف الممتازة عام ١٩٤٢م، وكان موضوع بحث الدّكتوراه خاصّته: (الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربي، وكان ذلك بإشراف الأستاذ الدّكتور طه حسين) وعمل محرّراً بمجمع اللغة العربيّة، ثمّ عيّن معيداً بكليّة الآداب في جامعة القاهرة عام ١٩٣٦م، وبعدئذ عيّن أستاذاً مساعداً سنة ١٩٤٨م، ثمّ أستاذاً لكرسي آداب اللغة العربيّة عام ١٩٥٦م. وبعد ذلك صار رئيساً لقسم اللغة العربيّة عام ١٩٦٨م، ثمّ أستاذاً غير متفرّغ، وكان أيضاً عضواً في المجمع اللغوي والمجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة وغيرها من الهيئات " [٦]، وهذه المناصب التي تسلّمها والمراتب التي حصل عليها أسهمت في بلورة نضج فكري تحلّى به الدّكتور النّاقد، لكنّ هذا النّضج كان جنيناً ما لبث أن عاش مرحلة المخاض ؛ إذ نجد النّاقد (ضيف) قد أبدع مؤلّفات تجاوزت خمسين مؤلّفاً، وكان منها كتباً في الدّراسات القرآنيّة والأدبيّة والنّقديّة وسلسلة تاريخ الأدب العربي، وبحوث تحليليّة عن أكثر من مبدع، ناهيك عن تحقيقه كتباً أدبيّة قيّمة كثيرة .

موقف شوقي ضيف من دعبل الخزاعي:دعبل الخزاعي شاعر ملتزم دينيّاً، فقد امتلك عاطفة جيّاشة تجاه آل البيت عليهم السّلام، وله مواقفه الواضحة منهم، ومع ذلك نجد النّقّاد فريقين أمام الصّورة العقديّة لدعبل الخزاعي، فوجده بعضهم شيعيّاً مخلصاً، ورآه آخرون غير شيعيّ، وسنقف على أهمّ المواقف في تشيّعه ومواقفه الدّينيّة.

١- **الموقف من تشيّعه:** لقد كان دعبل الخزاعي شاعراً شيعياً ثابتاً في مبادئه، ولم يستسلم أمام تناقضات آراء النّاس حوله، بل دافع عن تلك المبادئ وذكرها في شعره، وقد قالت عنه د. عايدة سعدي: " كان دعبل متشيّعاً لأهل البيت، فكرّس شعره لهجاء مغتصبي السّلطة من بني العبّاس، ولذا عرف بسلاطة لسانه، وفحش القول " [٧]، وقد أوردت النّاقدة قوله [٨]:

فكيـــــفَ ؟ ومِــــن أَنّـــــى يطالــــبُ زُلْفَـــــةً

إلـــــى اللهِ بَعـــــدَ الصّـــــومِ وَالصّـــــلواتِ ؟

سِـــــوى حُـــــبّ أَبنـــــاءِ النَّبـــــيّ وَرَهطِـــــهِ

وبُغْـــــضِ بنـــــي الزّرقـــــاءِ والعَـــــبلاتِ[٩]

" كان استيلاء العبّاسيين على مقاليد الخلافة مفاجأة لكثير من العلويين وأنصارهم من فرق الشّيعة، وربّما كانت الفرقة الوحيدة التي لم تجد في ذلك غضاضة هي فرقة الكيسانيّة من أصحاب بني هاشم بن محمد بن الحنفيّة، فإنّه تنازل لهم عن الخلافة، ولعلّ ذلك ما جعل شعراءها من أمثال السّيّد الحميري يقفون في صفوف العبّاسيين مادحين مُثْنينَ " [١٠]، ووجد كثيرون أنّ التزام دعبل دينيّاً، وحبّه آل البيت، وتغنّيه بهم في أشعاره دليل على أنّه شاعر شيعي ملتزم، ولاسيّما حين يذكر سلبيّات بعض الأفعال التي قام بها في مرحلة الطّيش، والتي ندم عليها ندماً شديداً في مراحل نضجه ووعيه، ومن ذلك ما جاء في قوله [١١]:

سَـــــقْيَاً وَرَعْيَـــــاً لِأَيَّـــــامِ الصَّـــــبَابَاتِ

أَيَّـــــامَ أَرفُـــــلُ فِـــــي أَثْـــــوَابِ لَـــــذَّاتِي[١٢]

أَيَّـــــامَ غُصْـــــنِي رَطِيـــــبٌ مِـــــن لُدونَتِـــــه

أَصـــــبُو إِلـــــى غيـــــرِ جـــــاراتٍ وكَنّـــــاتٍ

دَعْ عَنــــكَ ذِكـــرَ زَمـــانٍ فَـــاتَ مَطْلَبُـــهُ

واقـــذُفْ بِرِجلَيـــكَ عَـــنْ مَـــتنِ الجَهَـــالاتِ

وَاقْصِـــدْ بِكُـــلِّ مَـــدِيْحٍ أَنْـــتَ قَائِلُـــهُ

نَحْـــوَ الهُـــدَاةِ بنـــي بَيْـــتِ الكَرَامَـــاتِ

وفي هذه الأبيات نجد ذلك النّفس الشّيعي الصّادق المليء بالحسرة على ما تمّ ارتكابه من طيش والتّصريح بسلك طرق الهداية والاسترشاد، وفي هذا يقول د. فاروق الجنوبي: " يتذكّر دعبل أيّام الصّبابة والشّباب حين كان يرفل في أثواب لذّاته؛ إذ كان غصنه رطيباً، وهو يصبو إلى جاراته في هذه اللحظات الجميلة من الذّكريات التي تمرّ بخاطره، لا شريطاً سينمائيّاً مصوّراً، تتهافت على ذهنه أفكار العقلانيّة والتّمييز، فينكر على نفسه ذكريات ذلك الزّمان الذي مضى مطلبه وتقطّعت حبائله وعاد إلى نفسه يطلب منها الكفّ عن تكرار سريان ذلك الشّريط المحفوف بالجهالات، وطالباً من قريحته الفيّاضة أن تتوجّه بكل ثقلها لمدح أهل البيت عليهم السّلام الهداة بني المكرمات... والبيت الرّابع في المقطوعة هو المعوّل عليه في النّص، وهو بيت القصيد الذي عليه تدور طاولة البحث، حيث أهل البيت عليهم السّلام هم هداة الأمّة بعد الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وهم حملة سنّته الحقيقيّون بلا منازع، وأهل الكرامات على الأرض " [١٣]، وهذا يشير إلى تصريح الدّكتور فاروق الجنوبي بتشيّع دعبل، جاعلاً من أبيات الشاعر شاهداً على هذا التّشيّع. وهذه القصيدة ليست القصيدة الوحيدة التي تشير إلى اعتناق دعبل الخزاعي المذهب الشّيعي، ويقينه بآل البيت؛ إذ " له شعر شيعي كثير، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، كما أكثر فيه من بكاء الحسين ورثائه، بمثل قوله [١٤]:

رَأسُ ابـــنِ بنـــتِ مُحمّـــدٍ وَوَصِـــيِّهِ

يَـــا لَلرجـــالِ عَلَـــى قنـــاةٍ يُرْفَـــعُ

وَالمُسْـــلِمُونَ بِمَنْظَـــرٍ وَبِمَسْـــمَعٍ

لا جَـــازِعٌ مِـــنْ ذَا وَلا مُتَخَشِّـــعُ

ونحن نجد في هذه المقطوعة الشّعريّة معجمه الشّيعي المتمثّل بذكر رأس ابن بنت محمّد، وحادثة قطع رأسه، واستنكار سلبيّة المسلمين وتخاذلهم في الدّفاع عن هذا الإنسان المقدَّس. وهذه الصّورة التي يرسمها الشّاعر في كثير من قصائده تشير إلى الوجع النّفسي الذي عاشه الشّاعر وهو يذكر قصّة الحسين عليه السّلام، وكيف غدروا به، ووقفوا أمام مشهد قطع رأسه موقف المشاهد السّلبي، لكنّ الدّم العربي استيقظ بعد غفلة المشهد، ليعي العرب أنّهم مقصّرون في الدّفاع عن المقدّسين فملؤوا حياتهم بالحسرة والنّدم، وما تزال طقوس التّعبير عن ذاك النّدم ماثلة أمامنا حتّى اليوم. وحين نتحدّث عن دعبل الخزاعي نجد أمامنا شاعراً متديّناً؛ إذ " يبدو في شعره الشّيعي إماميّاً، وقد شكّك أبو العلاء في تشيّعه " [١٥]، وهذا التّشكيك ليس منصفاً؛ إذ تراه دراستنا افتراء، وقد وجد ضيف أنّ المعرّي قد يكون محقّاً، فقال: " ولعلّه محقّ في تشككه لأنّه مثل دعبل المنطوي على كره النّاس لا يمكن أن يخلص لآل البيت، إلاّ أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقده، وكأنّ أموال (قم) هي التي دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعيّة " [١٦]، ويمكن القول إنّ اجتماع رأيي المعرّي وضيف ليس إلاّ قراراً خاطئاً لأنّ كلاً منها رأي لا يمكن أن يصدّقه قارئ الخزاعي، ففي كل حرف من حروف قصائده إشعاع شيعي، وتقول د. شيماء عبد الواحد: " يلاحظ ولاء دعبل الخزاعي للشّيعة، وغلبة الانتماء العاطفي إليهم لذلك تكثر الكلمات الدّالّة على الحبّ والمودّة، ممّا يؤكّد الميل القلبي الذي يرتبط بالعاطفة الدّينيّة، والكلمات الدّالّة على التّسليم بالتّشيّع، لتعبّر عن موقفه

السّياسي أيضاً "[١٧]، وهذا القول يوضّح نظرتها الواثقة من تشيّعه. ورأي النّاقدة به مخالف للرّأيين السّابقين لشوقي والمعرّي، فشوقي حاول إثبات عدم تشيّع دعبل الخزاعي، وصرّح بذلك كثيراً نحو قوله: " ولم يقف عند هجاء الأفراد، فقد استعاد هجاء العصبيّات القديم، وكانت قصيدة الكميت الشّيعي في هجاء أصوله القحطانيين تؤذيه فعمد إلى نقضها بقصيدة نونيّة أودعها مثالب القبائل العدنانيّة، ولو أنّه كان مخلصاً في تشيّعه حقّاً لأعلى صلة التّشيّع بينه وبين الكميت على العصبيّة القبليّة، وخاصّة أنّ الكميت كان قد مات منذ زمن بعيد، وأثار ذلك أبو سعد المخزومي فاندلعت بينهما معركة هجاء عنيفة "[١٨] فقد وجد أنّ ضيق الخلاف المشبع بالعصبيّة بين الخزاعي والكميت يشير إلى ابتعاد الخزاعي عن الشّيعة، ولو كان شيعيّاً – برأي شوقي ضيف – لأقام جسور علاقات بينه وبين الكميت، لذا جعل هذا البعد بينهما دليلاً على عدم تشيّعه، وهذا خاطئ لأنّ المدقّق في تاريخ الأحداث وسيرورتها سيجد في كلام شوقي ضيف مفارقة واضحة.ويجد كثيرون أنّ تشيّع دعبل الخزاعي تثبته أشعاره فيقول الأشتر في هذا التّشيّع: " وكان دعبل يكتب شعره، ويكتبه عنه شيعته، وهم شيعة آل البيت والنّاقمون على السّلطان العبّاسي القائم أوّلاً، وشيعة اليمنيّة ومواليهم والمتعصّبون على النّزاريّة ثانياً، وشيعة مذهبه الفنّي المحافظ الذي استقرّ عليه ثالثاً، وقد خطف من ناحية أخرى، ولداً شاعراً يحفظ شعر أبيه ويردّده ويحدث بأخباره ولطائفه، فلا عجب أن يبلغ شعره من الاستفاضة في القرن الثّالث أن تعتبر بعض قصائده أشهر من الشّمس"[١٩]، تشير كلمات الأشتر إلى أنّ دعبل الخزاعي كثير الحديث في الشّيعة وفي وصف فرقهم وأحزابهم، فنراه يكتب قصائده مضمّناً إيّاها نفساً شيعيّاً مليئاً بحبّ آل البيت، وهذا يؤكّد تشيّع الشّاعر دعبل الخزاعي. ويبدو تشيّع دعبل الخزاعي بمحاولته ذكر أصول الدّين الإسلامي المشبع بحبّ آل البيت والأئمة وغيرهم ممن نجد عبقهم في شعره، فبدا دعبل الخزاعي أمامنا شاعراً عبّاسيّاً ملتزماً، وأمام هذا الالتزام نجد النّاقد الأشتر يستمرّ في تأكيد تشيّع الشّاعر دعبل الخزاعي، فيقول: " وكان التزام الشّاعر بالدّفاع عن عقيدته في الولاء لآل البيت وبكاء مقاتلهم وتصويرها، والدّفاع عن حقّهم المغتصب في الخلافة، والطّعن على خصومهم والرّد على شعراء العبّاسيّة، يردّني إلى ما كتب في تاريخ الشّيعة وعقائدها منذ القديم"[٢٠]، ففي قوله في رثاء علي بن موسى الرّضا[٢١]:

ألا مـــا لِعَيْنَـــي بِالـــدُّمُوعِ اسْـــتَهَلَّتِ
وَلَـــو نَفَـــدَتْ مَـــاءُ الشُّـــؤونِ لَقَلَّـــتِ

عَلَـــى مَـــنْ بَكَتْـــهُ الأَرْضُ وَاسْـــتَرْجَعَتْ لَـــهُ
رُؤوسُ الجِبَـــالِ الشَّـــامِخَاتِ وَذَلَّـــتِ

وَقَـــدْ أعْوَلَـــتْ تَبْكِـــي السَّـــمَاءُ لِفَقْـــدِهِ
وَأَنْجُمُهَـــا لَاحَـــتْ عَلَيْـــهِ وَكَلَّـــتِ

فَـــنَحْنُ عَلَيْـــهِ اليَـــوْمَ أَجْـــدَرُ بِالبُكَـــا
لِمَرْزَئَـــةٍ عَـــزَّتْ لَـــدَيْنَا وَجَلَّـــتِ

فقد بدا دفاع الشّاعر عن حقّ الشّيعة المغتصب واضحاً، والمرء يدافع عمّن يحبّ، وهذا يؤكّد حبّه للشّيعة، ومطالبته بعودة حقّهم في الخلافة. والمطالبة بخلافة الشّيعة تستدعي النّقيض وهو إنكار خلافة سواهم، والطّعن في خصومهم، والرّد على كلّ من يهجوهم، وهذا يعمّق انتماءات الشّاعر دعبل الخزاعي إلى التّيّار الشّيعي. فدعبل الخزاعي كثير الحبّ لآل البيت عليهم السّلام، فنراه يمدح آل البيت ويرثي من غيّبه الموت منهم قائلاً [٢٢]:

هُـــــمُ أَهْــــلُ مِيْـــرَاثِ النَّبِـــــيِّ إِذَا اعْتَـــــزَوا
وَهُـــــمْ خَيْــــرُ قَـــــادَاتٍ وَخَيْـــــرُ حُمَــــاةِ

وهذا القول يشير إلى كثير من الودّ الذي فاض في أعماقه ولاءً، ففي قوله (هم أهل ميراث النّبي) يريد إبراز أحقيّتهم في الخلافة، وفي قوله (هم خير قادات) يشير إلى قدرتهم على القيادة الحكيمة، وفي قوله (خير حماة) يشير إلى صونهم من يقوم بموالاتهم.والإنسان حين يُغرق في الحديث عن أمر ما – أياً كان ذاك الأمر – يشير إلى اهتمامه به، إنّه الاهتمام الذي يجعل محور الحديث يعطي صورة واضحة عن مدى علاقة الإنسان بالشّيء المذكور كثيراً، وهذه الصّورة تحدّدها دلالات العلاقات التي توضّح سلبيّة الرّابط أو إيجابيّته بين الطّرفين، ومن الوصف السّابق نجد صورة ربط إيجابيّة تجمع دعبل بآل البيت، وهذا يؤيّد نظرتنا في تشيّعه. وهذه المعاني تردّدت كثيراً في أشعاره كقوله [٢٣]:

فَيَـــــا وَارِثِـــــي عِلْـــــمِ النَّبِـــــيِّ وَآلِـــــهِ
عَلَـــــيْكُمْ سَــــــلَامٌ دَائِـــــمُ النَّفَحَــــــاتِ
إِذَا لَــــــمْ تُنَـــــاجِ اللهَ فِـــــي صَـــــلَوَاتِنَا
بِأَسْــــــمَائِهِمْ لَــــــمْ يَقْبَــــلِ الصَّــــلَوَاتِ
أَفَــــاطِمُ لَــــوْ خِلْــــتِ الحُسَــــيْنَ مُجَــــدَّلاً
وَقَــــدْ مَــــاتَ عَطْشَــــانَاً بِشَــــطِّ فُــــرَاتِ
إِذَن لَلَطَمْــــــتِ الخَــــــدَّ فَــــاطِمُ عِنْـــــدَهُ
وَأَجْرَيْـــتِ دَمْـــعَ العَـــيْنِ فِـــي الوَجَنَـــاتِ !

إنّنا أمام مقطوعة مليئة بنبض الشّيعة كقوله: (وارثي علم النّبي وآله، نناج الله في صلواتنا بأسمائهم، الحسين، فاطم، إذا لم نناج الله في صلواتنا بأسمائهم لم يقبل الصّلوات) وتقول د. شيماء عبد الواحد: " عقيدة الشّاعر الرّاسخة في رجعة الإمام، وكون ذلك أمراً يقينيّاً عنده، لا ينفي أن يكون موضع جدل من أعداء الشّاعر ومناوئيه.. والشّاعر أطال في وصف معاناة الشّيعة في عصره، أي حقبة العسر التي لابد أن يأتي بعدها اليسر المتمثّل في ظهور المهدي المنتظر، ويكشف ذلك عن شدّة معاناة الشّيعة في عصر الشّاعر، وقد امتدّت تلك المعاناة إليه بوصفه واحداً من الشّيعة"[٢٤]، وقد ظهرت في قوله[٢٥]:

مَلَامُــــكَ فِـــي أَهْـــلِ النَّبِـــيِّ فَـــإِنَّهُمْ
أَحِبَّــــايَ مَــــا عَاشُــــوا وَأَهْــــلَ ثِقَــــاتِي

وقال أيضاً في آل البيت [٢٦]:

أَهْــــلُ المُبَاهَلَــــةِ الكَرِيْمَــــةِ وَالكِسَــــا
وَالبَيْـــــتِ وَالأَسْـــــتَارِ وَالحُرُمَــــــاتِ
وَمَخَــــازِنُ العِلْــــمِ المُنَــــزَّلِ عِنْــــدَهُمْ
بِــــالوَحْيِ وَالقُــــوَّامِ بِالبَرَكَــــاتِ
وَذَوو الكِتَــــابِ القَــــائِمُونَ بِــــأَمْرِهِ
وَالعَــــالِمُو مُتَشَــــابِهَ الآيَــــاتِ
فَيَقُــــولُ قَــــائِلُهُمْ سَــــلُونِي قَبْــــلَ أَنْ
تُــــدْهَوا بِفُقْــــدَانِي وَحِــــيْنَ وَفَــــاتِي

وهذا يبيّن معجمه الشّيعي القائم على الجزئيّات الآتية: (أهل الباهلة، أهل البيت، ذوو الكتاب، العالمو متشابه الآيات، سلوني قبل أن تدهوا بفقداني، مخازن العلم المنزل عندهم)، نجد في كل جزئيّة إشـــارة إلى آل البيت عليهم السّـــلام، فآية المباهلة نزلت في أهل البيت عليهم السّـلام وليس في سـواهم، وهذه الآية تشـير إلى فضـل أهل البيت عليهم السّـلام وحكمتهم وقدرتهم على فضّ الخلافات بين النّاس. وذكر الشّـاعر لهذه الجزئيّات ليس إلاّ إثباتاً لتشيّعه وعمق انتمائه الدّيني للشّيعة، واعتزازه بهذا الانتماء، فهو شيعي في لفظه ويقينه وإبداعه. ولم يكن مدحهم آيته في إبراز تشيّعه، بل نجد رثائيّاته لرموز الشّيعة فقد قال في مقتل الحسين بن علي[٢٧]:

يَـــا وَاقِفَـــاً يَبْكِـــي الطُّلُـــولَ وَيُنْشِـــدُ
بِـــاللهِ تِهْـــتَ وَغَـــابَ عَنْـــكَ المُرْشِـــدُ
هَـــلَّا بَكَيْـــتَ عَلَـــى الحُسَـــيْنِ وَأَهْلِـــهِ
هَـــلَّا بَكَيْـــتَ لِمَـــنْ بَكَـــاهُ مُحَمَّـــدُ
فَلَقَـــدْ بَكَتْـــهُ فِـــي السَّـــمَاءِ مَلَائِـــكٌ
زُهْـــرٌ كِـــرَامٌ رَاكِعُـــونَ وَسُـــجَّدُ
قَتَلُـــوا الحُسَـــيْنَ وَأَثْكَلُـــوهُ بِسِـــبْطِهِ
فَالثُّكْـــلُ مِـــنْ بَعْـــدِ الحُسَـــيْنِ مُبَـــدَّدُ
كَيْـــفَ القَـــرَارُ وَفِـــي السَّـــبَايَا زَيْنَـــبٌ
تَـــدْعُو بِفَـــرْطِ حَـــرَارَةٍ: يَـــا أَحْمَـــدُ !

فنجد كل كلمة من هذه القصـيدة محمّلة بالحزن والحسـرة على الإمام الحسـين عليه السّـلام، وهذا الحزن يسـتدعي التّحريض للأخذ بثأر الحسين وأهله، معلناً أنّ الإمام الحسين حبيب النّبي محمّد (ص)فقد بكته ملائكة السّماءوتبكيه كلّ عينٍ أحبّته، فهو الرّمز المضيء الذي يشـعّ بركة وخيراً، وحين فقده المسـلمون فقد فقدوا بفقده كلّ البركة والخير وحلّ مكانهما النّدم والقهر والإحسـاس بالذّنب بسـبب عدم القيام بما وَجَب عليهم القيام به من حماية الحسين عليه السّلام، والوقوف دون قطع رأسه وقال في مديح علي بن أبي طالب عليه السّلام [٢٨]:

سَـــقْيَاً لِبَيْعَـــةِ أَحْمَـــدٍ وَوَصِـــيِّهِ — أَعْنِـــي الإِمَـــامَ وَلِيَّنَـــا المَحْسُـــوْدَا
وَهُـــوَ المُقِـــيْمُ عَلَـــى فِـــرَاشِ مُحَمَّـــدٍ — حَتَّـــى وَقَـــاهُ كَائِـــدَاً وَمَكِيْـــدَا
وَهُـــوَ المُقَـــدَّمُ عِنْـــدَ حَوْمَـــاتِ الـــوَغَى — مَـــا لَـــيْسَ يُنْكَـــرُ طَارِفَـــاً وَتَلِيْـــدَا
إِنْ يَـــدْمُغُوهُ عَـــنِ المَقَـــامِ فَلَـــمْ يَكُـــنْ — شَـــانِيْه إِلَّا حَاقِـــدَاً وَحَسُـــوْدَا

يبرز مديح الشّـــاعر العبّاســـي دعبل الخزاعي لعلي بن أبي طالب عليه السّـــلام أنّه يحبّه كثيراً ويبايعه، ويجد فيه الخليفة الأحقّ بعد الرّسول الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولاسيّما أنّه يذكر يوم إقامة علي عليه السّلام في فراش الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، حين اجتمع القريشيّون وأرادوا الفتك بالنّبي الكريم، فما كان من سيّدنا علي عليه السّلام إلاّ أن نام في فراشه، وقد مرّ الطّاهر أمامهم من دون أن يرَوه، ولم يكتفِ الشّـاعر بوصـف هذه الحادثة التّاريخيّة الدّينيّة المعروفة، بل بيّن شـجاعته، ووصـف موقف النّاس منه بين مؤيّد ومعارض، فكان في كل ما نطق معترفاً بروعة الشّيعة، وولائه لهم.وقال في رثاء الحسين ووصف مقتله [٢٩]:

يَـــا أُمَّـــةً قَتَلَـــتْ حُسَـــيْنَاً عُنْـــوَةً
لَـــمْ تَـــرْعَ حَـــقَّ اللهِ فِيْـــهِ فَتَهْتَـــدِي
قَتَلُـــوهُ يَـــوْمَ الطَّـــفِّ طَعْنَـــاً بِالقَنَـــا
سَـــلْبَاً وَهْبَـــرَاً بِالحُسَـــامِ المُقْصِـــدِ

وَلَطَالَمَـــــا نَـــــادَاهُمُ بِكَلَامِـــــهِ

جَـــدّي النَّبِـــيُّ خَصِـــيْمُكُمْ فِـــي المَوْعِـــدِ

جَـــدِّي النَّبِـــيُّ وَأَبِـــي عَلِـــيٌّ فَـــاعْلَمُوا

وَالفَخْـــرُ فَاطِمَـــةُ الزَّكِيَّـــةُ مَحْتِـــدِي

يَـــا عَـــيْنُ جُـــوْدِي بِالـــدُّمُوْعِ واهْمُلِـــي

وَابْكِـــي (الحُسَـــيْنَ) السَّـــيِّدَ ابْـــنَ السَّـــيِّدِ

فرثاء الحسين يشير إلى تأثّر الشّاعر بمقتل سيّد الأسياد الأشراف الأطهار من آل البيت عليهم السّلام، ناهيك عن اعترافه بجذور العائلة حين قال (جدّي النّبي)، وافتخاره بوالده قائلاً (أبي علي)، واعتزازه بفاطمة في قوله: (الفخر فاطمة الزّكيّة محتدي)، وهذه العبارات تؤكّد تشيّع الشّاعر العبّاسي دعبل الخزاعي وجماليّة اعترافه بهذا التّشيّع، فهو الشّيعي الحقّ الذي تمثّل كلّ أمور الشّيعة قولاً وفعلاً فكان الشّاعر شيعيّاً ملتزماً مليئاً بالحبّ العارم لعلي والحسين وآل البيت عليهم السّلام.

٢- **المواقف من مدائحه الدّينيّة:**تعتمد المدائح النّبويّة على تعداد مناقب آل البيت عليهم السّلام، ومدح خصال بني هاشم، وأبناء فاطمة، والإشادة بكلّ جزئيّة من عقيدة الشّيعة، وذكر مزايا كلّ فرد من جماعة رسول الله (ص) وأقربائه، وإقراره بأنّهم ذوو مكانة خاصّة في الإسلام والحياة؛ وبلاد العرب منذ الأزل دار عبادة ونسك وتديّن، إنّها مهد الحضارات الدّينيّة كلّها، اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة، فالعرب آمنوا بالدّين والدّنيا والآخرة، ودعبل واحد منهم، إذ تباينت الآراء حوله، وكأنّ له في كلّ غرض شعري مؤيّدون ومعارضون، نحو قول عايدة سعدي في مدائحه الدّينيّة: " تعتبر قصيدة التّائيّة من أجود شعر دعبل في مدح آل البيت " [٣٠]، وهذا الموقف الايجابي من مدائحه يشير إلى جماليّة النّظرة تجاه تلك المدائح، وقد وقف نقّاد كثيرون حول هذه المدائح الموقف ذاته، كقول الحموي: " قصيدته التّائيّة في أهل البيت من أحسن الشّعر وأسنى المدائح، قصد بها علي بن موسى الرّضا بخراسان فأعطاه عشرة آلاف درهم، وخلع عليه بردة من ثيابه، ويقال إنّه كتب القصيدة في ثوب وأحرم فيه، وأوصى بأن يكون في أكفانه " [٣١]، وهذا القول يؤكّد أنّ الحموي معجب بمدائح الخزاعي. ففي قوله: " قصيدته التّائيّة في أهل البيت من أحسن الشّعر، وأسنى المدائح "؛ إذ نراه يضعها في المرتبة الأولى، لصدقها، وجمال إيقاعها ومضمونها، وشفافيّة عرضها غرام الشّاعر العبّاسي دعبل الخزاعي لآل البيت عليهم السّلام. وحين ذكر مواقف الشّيعة منها، أكّد رضا الشّيعة عنه، فقد قال: " قصد بها علي بن موسى الرّضا بخراسان فأعطاه عشرة آلاف درهم "؛ فهذا الثّواب يعلن بصراحة الإعجاب بهذه التّائيّة المفعمة بمدح أهل البيت، والموافقة على ما جاد بها الشّاعر الخزاعي من تفاصيل تهمّ الشّيعة وتخصّهم بالمدح وتخصّ سواهم بالنّقيض. وحين أعلن الشّاعر أنّ هذه القصيدة تستحقّ أن تكون كلمات طاهرة تدوّن على كفنه، فهو يشير إلى عمق اعتناقه التّيّار الشّيعي، وشغفه بعشق الشّيعة، وإيمانه المطلق بعقيدتهم، فيجد استقراره الأبدي في الحروف التي تضيء له القبر، وتجعله في أمان من متاهات الموت. ومدائح الخزاعي مشبعة بنبض الإيمان بقدرة الشّيعة على التّأثير إيجاباً في الآخرين، وهو تأثير منوط بصدقهم وإيمانهم ومكانتهم في الإسلام. ولم يبخل نقّاد كثيرون في إبراز روعة دفاع دعبل الخزاعي عن النّبي محمّد صلّى الله عليه واله وسلّم، فقد قال في ذلك يحيى معروف: " قلّما نجد شاعراً أو كاتباً شيعيّاً دافع عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وآل بيته الأبرار إلاّ ونجد أنواع التّهم تخيّم عليه " [٣٢]، ويقول أيضاً: " يغلب على أشعاره الهجاء لحكّام الجور، واشتهر بالهجاء في عصر كان يعتبر فيه الهجاء جريمة يعاقب عليها فاعلها " [٣٣]، وهذا الحكم لم يكن إلاّ برهاناً على رغبة الشّاعر في التّصريح بموقفه من النّبي محمّد عليه صلوات الله وآله وسلّم، وفي إبراز تأثير القرآن الكريم، والقيم الإسلامية في قلبه. لقد كان لمدائح الشّاعر العبّاسي كبير الأثر في المتلقّي والقارئ والنّاقد والمحيط معاً، وهذا الأثر ليس أثراً قرائيّاً بمقدار ما هو أثر تستدعيه ظروف الموقف المعيش في المرحلة النّقديّة التي صدر عنها. لقد احتلّت المدائح النّبويّة مساحة كبيرة من منجزات الشّاعر الدّينيّة، وكان لها حضورها القوي في شعره، فهو الآمِل بعفو الإله، والمفتخر بعظمة آل البيت، والممجّد للرّسول الكريم، والعاشق للحسين، والمفعم بصدى الهيام بكلّ من والى الحسين وعلي وأبنائهما من آل البيت عليهم السّلام. ونجد في مدائحه النّبويّة فلسفة خاصّة للحياة الدّنيا والآخرة، فهو المؤمن بأنّ الدّنيا الرّحبة دار ممر إلى دار مستقرّ، وأنّ متاعها زائل؛ لذا كان الزّهد بها أوجب وأكثر حكمة، ونراه يستنكر حطام الدّنيا، ويحثّ على فعل الخير والصّالحات والجميل فيها، وأنّ نعمة الإنسان إيمانه بالله وحبّه لآل البيت عليهم السّلام، وهذا مترافق

مع تصويره الشّوق للقاء الرّسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وفي هذا نجد حتّى من أنكر تشيّعه أمثال النّاقد شوقي ضيف يذكر مدحه لآل البيت؛ إذ نراه يقول: " له شـعر شـيعي كثير، وقد أكثر فيه من الحديث عن فضـائل علي بن أبي طالب " [٣٤]، وهذا يؤكّد كثرة تلك المدائح النّبويّة في شـعره. وتائيّة دعبل المليئة بالمدائح النّبويّة اسـتقطبت كثيرين، ومنهم جرجس كنعان الذي قال في قراءته هذه القصـيدة المدحيّة: " أنا لا أدّعي إحياء ذكر دعبل فله من تائيّته ما يخلّده في ذهن كلّ أديب، ولا أدّعي أنّي جلوت كل غوامض ملابسـات دعبل فعمّر مئة سـنة يحتاج إلى كتب عديدة وجلد طويل "[٣٥]، وهذا يشـير إلى اعترافه بالإعجاب الشّـديد بما أبدعه دعبل في مسـيرته الشّـعريّة ولاسيما حول مدائحه النّبويّة التي شعّت في ديوانه. واختلاف الآراء حول مدائح دعبل الخزاعي الدّينيّة تجعل القارئ أمام صورتين اثنتين: الأولى: الإشـادة بتلك المدائح، والاعتراف بصـدقها وعفويّتها. الثّانية: محاولة إنكار أسـس تلك المدائح والإتيان بانزياحات لقصـديّة تلك المدائح النّبويّة، ولو تأمّلنا مدحه الحسن بن سهل قائلاً [٣٦]:

حُسْـــنُ ظَنِّـــي إِلَيْـــكَ أَسْـــعَدَكَ اللَّـــهُ دَعَـــانِي، فَـــلا عَـــدِمْتَ الصَّـــلَاحَا

وَدَعَـــانِي إِلَيْـــكَ قَـــوْلُ رَسُـــوْلِ اللَّـــهِ إِذْ قَـــالَ مُفْصِـــحَاً إِفْصَـــاحَا

إِنْ أَرَدْتُـــمْ حَوَائِجَـــاً عِنْـــدَ قَـــوْمٍ فَتَنَقَّـــوا لَهَـــا الوُجُـــوهُ الصَّـــبَاحَا

وَلَعَمْـــرِيَ لَقَـــدْ تَخَيَّـــرْتُ وَجْهَـــاً مَـــا بِـــهِ خَـــابَ مَـــنْ أَرَادَ النَّجَاحَـــا

فالشّاعر حين مدح الممدوح قرن المدح بقول رسول الله صلّى الله عليه واله وسلّم، وهذا الأمر جعل القارئ أمام الخط الدّيني الذي سار عليه الشّاعر، وجعله يحكّم مستوى الممدوح بمقدار تمثّله القيم الدّينيّة؛ لذا يمكن أن نجد في المدائح النّبويّة أمرين:

١- التّغنّي بفضائل النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم وآله عليهم السّلام.

٢- الإشادة بمن تمثّل تلك الفضائل النّبويّة.

ومن مدائحه النّبويّة ما قاله في علي بن أبي طالب عليه السّلام [٣٧]:

سِـــنَانُ مُحَمَّـــدٍ فِـــي كُـــلِّ حَـــرْبٍ إِذَا نَهِلَـــتْ صُـــدُوْرُ السَّـــمْهَرِيِّ

وَأَوَّلُ مَـــنْ يُجِيْـــبُ إِلَـــى بِـــرَازٍ إِذَا زَاغَ الكَمِـــيُّ عَـــنِ الكَمِـــيِّ

مَشَـــاهِدُ لَـــمْ تُقَـــلَّ سُـــيُوْفُ تَـــيْمٍ بِهِـــنَّ وَلَا سُـــيُوْفُ بَنِـــي عُـــدَيِّ

لقد برزت الصّـورة المادحة في الجزئيّات الآتية: (سـنان محمّد، أوّل من يجيب)، فقد كان الممدوح منافحاً عن محمّد صـلّى الله عليه واله وسلّم، وكان شجاعاً (أوّل من يجيب)، ولاسيّما أنّ شجاعته كانت في لحظة يخشى فيها الشّجعان (إذا زاغ الكميّ عن الكمي)، ولذا فدراستنا تجد هذه المدائح مزيجاً من الالتزام الدّيني والعشـق الشّـيعي معاً. وهكذا نجد أنّ المواقف المتباينة من المدائح النّبويّة تجسّـدت في نظرات الاعتزاز بتراث الشّيعة، والتّباهي بالسّير على خطا الحسين، والاستضاءة بنور علي عليه السلام، والافتخار بعشق آل البيت عليهم السّلام، وتجسّـدت أيضـاً في الصـورة النّقيضـة التي شكّك فيها ضـيف وغيره من النّقّاد بعفويّة تلك المدائح. وأياً كان الأمر فقد كانت تلك المدائح دليلاً واضحاً على شيعيّة الشّاعر وجماليّة الانفعال الشّيعي الذي سيطر عليه حدّ الهيام.

٣- **الموقف من هجائه الدّيني:** هجا دعبل الخزاعي كل من عارض سيّدنا محمّد صلى الله عليه واله وسلّم، وخالف نهجه، وهذا يشير إلى صدق انتمائه العقائدي، وعفويّة شعره المنبثق من ذاتٍ أحبّت النّبي الكريم فترجمت لحظات الحبّ كلمات شعريّة عميقة، وقد قال الإمام الشّيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء: " ثمّ انظر إلى فطاحل الشّعراء في القرن الأوّل والثّاني مع شدّة أطماعهم عند ملوك زمانهم وخوفهم منهم، ومع ذلك كلّه لم يمنعهم عظيم الطّمع والخوف – والشّاعر مادّي على الغالب – والسّلطة من خلفهم، والسّيوف مشهورة على رؤوسهم إن جاهروا بالحقّ ونصروه، وجاهدوا بالباطل وفضحوه، خذ من الفرزدق إلى الكميت إلى السّيد الحميري إلى دعبل " [٣٨]، وهذا يعبّر عن صدق الهجاء الذي أورده دعبل الخزاعي في خصوم آل البيت، ورسوخ وجهة نظره تجاه سيرة النّبي الكريم محمّد صلى الله عليه وسلّم وآله، وهذا يجعلنا أمام موقف الإعجاب بهذا الشّاعر من قِبَل النّاقد؛ إذ تشير كلمات نقده إلى ذاك الإعجاب عبر معطيات حاول بوساطتها إبعاد صفة التّكسّب عن هذا الهجاء لخصوم النّبي صلى الله عليه وسلّم وآله. ولو تأمّلنا أقوال نقّاد آخرين لوجدنا بعضهم ينكر صواب ما أشاد به نقّاد مؤيّدون، فشوقي ضيف يقرّ بأنّ دعبل عبقري في الهجاء فيقول: " أكبر هجّاء في عصره " [٣٩]، لكنّه في الوقت ذاته لا يجد هذا الهجاء إلاّ غرضاً عابراً لا أساس ديني له؛ لأنّه ينكر تشيّع دعبل الذي يقول في هجائه علي بن عيسى الأشعري [٤٠]:

كُنْتَ مِنْ أَرْفَضِ خَلْقِ اللهِ إِذْ كُنْتَ صَبِيًّا
فَتَوَلَّيْتَ أَبَا بَكْرٍ وَأَرْجَأْتَ الوَلِيَّا
وَتَجَنَّبْتَ عَلِيًّاً إِذْ تَسَمَّيْتَ عَلِيًّا

وهذا المقطع الشّعري يحوي كثيراً من الجزئيّات التي تُبطل وجهة نظر شوقي ضيف، وهذا ما يبيّنه الآتي:

العبارة الهاجية	الدّلالة
أرفض خلق الله	شدّة الإنكار
كنتَ صبياً	تعزيز الطّيش
تولّيت.. وأرجأت الوليا	عبثيّة المهجوّ
تجنّبت علياً	ابتعاد المهجوّ عن فضائل علي عليه السّلام

لقد اتّصف دعبل بسعة هجائه لأعداء النّبي محمّد صلى الله عليه وسلّم، وهو من الشّعراء الذين أتقنوا فنّ الهجاء، وقد قال عنه جرجس كنعان " كان دعبل أمير الهجاء " [٤١]، وهذا يشير إلى فداحة الهجاء الذي ينطق به دعبل. ولم يغفل النّقّاد عن إبراز دوافع الهجاء، فبعضهم أقرّ بها، وبعضهم أكّد عدم وجود تلك الدّوافع، فستار جاسم يقول: " والشّاعر دعبل الخزاعي عندما يهجو لم تكن له دوافع شخصيّة لأنّه في حال مدحه من هجاهم فسوف ينال مغريات ماديّة كثيرة لكنّه ليس ممن يطلب التّرف والدّعة على حساب المبدأ والعقيدة " [٤٢]، وهذا يجعل المتلقّي أمام عفويّة الهجاء وصدق منابته، ويبدو أنّ النّاقد حين صرّح بأنّ هجاء الشّاعر العبّاسي دعبل لا دوافع له، إنّما أقرّ لصوابيّة ذاك الهجاء، وحتميّة البوح به أمام سلبيّة المهجوّ، إنّه هجاء مليء بشغف التّفريغ الذي يرافقه الانفعال بكره كل من عادى آل البيت عليهم السّلام، وكل من خالف نبي الله الكريم. وإن كان هذا رأي ستّار، فهناك آراء كثيرة متعدّدة حول هجائه، لكنّها أجمعت جميعاً على عبقريّته في الذّم والهجاء، ولنا في قول الأصفهاني خير مثال عندما بيّن فطريّة الهجاء؛ إذ نجده يقول: " كان يعلم أنّ هجو الظّالمين والمتكبّرين لأجل الدّين يؤدّي إلى استشهاده، رغم ذلك لم يخف منهم ما دام حيّاً، فضلاً عن ذلك إذا كان غرضه كسب المال لكان بمقدوره أن يضع لسانه في سوق الارتزاق كما فعل غيره، ولو فعل ذلك لفاق أقرانه وجمع أموالاً هائلة لا يمكن حصرها، ولكنّه أبى إلاّ أن يضحّي بالغالي والنّفيس من أجل عقيدة كان يناصرها ضميره وليس هناك مجال للتّظاهر بالتّشيّع ما دام التّشيّع محارَباً من قبل الحكومة العبّاسيّة " [٤٣]، وهذا الرّأي لم يمنع من إقرار الأصفهاني بفداحة هجاء دعبل الخزاعي إذ قال عنه: " شاعر متقدّم مطبوع هجّاء خبيث اللسان، لم يسلم عليه أحد من الخلفاء، ولا وزرائهم، ولا أولادهم " [٤٤]، وخلاصة القول لقد كان الهجاء لدى دعبل نافذة تعبير عن كرهه للشّر المتمثّل بمخالفة النّبي الكريم، وآله الأطهار الطّيبيّن فجاء عفويّاً مؤثّراً.

خاتمة:

لم يكن شوقي ضيف ناقداً أو دارساً عادياً في ميدان الأدب العربي، بل هو مؤلّف غزير الإنتاج، له دراسات مهمّة في هذا الميدان، وله آراء على غاية الأهمّية مبثوثة في ثنايا مؤلّفاته، وبالرّغم من علميّته فإنّه في بعض المواضـــع كان يخرج عن صـــفة النّاقد الحقّة وهي الحيادية في إبداء الرّأي، وعدم الانطلاق من آراء وأحكام مسبقة موروثة، أو مستندة إلى توجّه سياسي أو دينيّ، وفي دراستنا هذه وقفنا عند موقف شوقي من الشّاعر دعبل الخزاعي، وقد توصّل البحث إلى النّتائج الآتية:

١- اتّباع شوقي ضيف منهج الشّكّ في مؤلّفاته جعله يُخطئ في كثير من المواضع، فهو تلميذ طه حسين الذي أسّس لهذا المنهج، وشكّك حتّى في الشّعر الجاهليّ، واتّباع ضيف لهذا المنهج جعله ينقل آراءه عمّن سار في هذا الاتّجاه، من مثل ابن خلّكان، ولاسيّما فيما يخصّ الشّريف الرّضي.

٢- كان شوقي ضيف غير منصفاً لشعراء الشّيعة، منطلقاً في ذلك من ميوله العقديّة المناوئة للتّشيّع، الأمر الذي جعله يبتعد عن المنهجيّة العلميّة في دراسته للشيعة وشعرائها ورموزها، حتّى وصل به الحال إلى وصف رموز الشّيعة بأنّهم أرباب الهوى.

٣- شكّك شوقي ضيف بتشيّع دعبل، متهماً إيّاه بادّعاء تشيّعه طمعاً في الكسب، مستنداً إلى أدلّة واهية، فيما الأدلّة على تشيّع دعبل كثيرة جدّاً في شعره.

٤- أشار شوقي ضيف إلى كثرة المدائح النّبوية في شعر دعبل، إلا أنّه أنكر عليه أن تكون هذه المدائح صادرة عن أسس وقناعات إيمانيّة، وعقيدة شيعيّة خالصة، وأخذ يؤول هذه القصائد بما ليس فيها.

هوامش البحث

[١] أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين: الأغاني، تحقيق: د. إحسان عبّاس، د. إبراهيم السّعافين، أ. بكر عبّاس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ج٢٠/٥٩.

[٢] مكي، أحمد: شاعر آل البيت دعبل بن علي الخزاعي - حياته وشعره، تحقيق: عبد القادر حافظ، الجامعة اللبنانيّة، بيروت- لبنان، ١٩٧٣م، ص٢.

[٣] ينظر: العسقلاني، ابن حجر: **لسان الميزان**. تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ج٢/٣٠، اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزّمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ج٢/١٤٥، الذّهبي، شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق: علي محمّد البجّاوي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت - لبنان، ط١، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م، ١/٣٢٨.

[٤] أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٢٠/٦٠.

[٥] ينظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦ هـ): مروج الذّهب ومعادن الجوهر، اعتنى به كمال حسن مرعي، المكتبة العصريّة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م، ٣/٢١٥-٢١٦.

[٦] ينظر: عمراني، عيسى: المعجم الجامع للأعلام وأصحاب الأقلام، جسور الجزائر، ط٢، ٢٠٠٩م، ص١٣٠.

[٧] سعدي، عايدة؛ أبو لبوس، جميلة: تجليّات الالتزام في تائيّة دعبل الخزاعي، الجزائر، مجلد ٩، عدد٢، ٢٠٢٢م، ص٣٠٦.

[٨] الخزاعي، دعبل: شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ط٢، مزيدة ومعدّلة، ١٩٨٣م، ص٢٩٣.

[٩] الزّرقاء: أمّ مروان بن الحكم. العبلات: أميّة الصّغرى من قريش.

[١٠] ضيف، شوقي: العصر العبّاسي الأوّل، دار المعارف، مصر، ط١٦، ١٩٦٦م، ص٣٠٥.

[١١] الأشتر، شعر دعبل الخزاعي، ص٩٧-٩٨.

[١٢] رفل: جرّ ذيله وتبختر.

[١٣] الجنوبي، فاروق: آل البيت عليهم السّلام في شعر دعبل الخزاعي، مجلّة أهل البيت عليهم السّلام، عدد٣، العراق، كربلاء، ٢٠٢٣، ص١٣٤-١٣٥.

[١٤] ضيف، شوقي: العصر العبّاسي الأوّل، ص٣٢١. والقصيدة في ديوانه، ص٣٩٨-٣٩٩.

[١٥] المرجع السّابق، ص٣٢١.

[١٦] ضيف، شوقي: العصر العبّاسي الأوّل، ص٣٢١.

[١٧] عبد الواحد، شيماء: التّمثيل الفنّي للسّرديّة الكبرى للشّيعة، التّائيّة الكبرى أنموذجاً، مجلّة كلّيّة الآداب، جامعة بني سويف، مصر، العدد٦٣، أبريل-يونيو ٢٠٢٢م ، ص٣٥٣.

[١٨] ضيف، شوقي: العصر العبّاسي الأوّل، ص٣٢٣.

[١٩] الخزاعي، دعبل: شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص٩.

[٢٠] المرجع السّابق، ص٢٥.

[٢١] المرجع السّابق، ص٣٢٠.

[22] المرجع السّابق، ص٣٠٠.
[23] المرجع السّابق، ص٣٠٠-٣٠٣.
[24] عبد الواحد، شيماء: التّمثيل الفنّي للسرديّة الكبرى للشّيعة – التّائيّة الكبرى لدعبل الخزاعي أنموذجاً، ص٣٥٠ و٣٥٢.
[25] الخزاعي، دعبل: شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص٨٤.
[26] المرجع السّابق، ص٣٢١-٣٢٢.
[27] المرجع السّابق، ص٣٢٤-٣٢٥.
[28] المرجع السّابق، ص٣٣١-٣٣٢.
[29] المرجع السّابق، ص٣٣٣-٣٣٤.
٣٠ سعدي، عايدة؛ أبو لبوس، جميلة: تجليّات الالتزام في تائيّة دعبل الخزاعي، الجزائر، مجلد ٩، عدد٢، ٢٠٢٢م ، ص٣٠٦.
[31] الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١، ١٩٩٣م، ٣/١٢٨٤-١٢٨٥.
[32] معروف، يحيى: شخصيّة دعبل الخزاعي من خلال التّناقضات، مجلة إضاءات نقديّة (فصليّة محكّمة)، السّنة الثّانية، عدد٨، كانون أول، ٢٠١٢، ص١٣٣.
[33] المرجع السّابق، ص١٤٦.
[34] ضيف، شوقي: العصر العبّاسي الأوّل، ص٣٢١.
[35] كنعان، جرجس: حديث الشّهر / دعبل الخزاعي /، العدد٣، د.ت، مطبعة الهلال، بغداد، ص٩.
[36] الخزاعي، دعبل: شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص٣٧٦-٣٧٧.
[37] المرجع السّابق، ص٣٥٧.
[38] آل كاشف الغطاء، الإمام الشّيخ محمّد الحسين: أصل الشّيعة وأصولها / مقارنة مع المذاهب الأربعة /، دار الأضواء، ط١، ١٩٩٠م، لبنان، ص١٣٢.
[39] ضيف، شوقي: العصر العبّاسي الأوّل، ص٣١٨.
[40] الخزاعي، دعبل: شعر دعبل بن علي الخزاعي، ص٢٧٥.
[41] كنعان، جرجس: حديث الشّهر / دعبل الخزاعي /، ص٨٣.
٤٢ جاسم، ستّار عبد الله: شعر دعبل الخزاعي بين توهّج العاطفة وعمق الانتماء، مجلّة مركز دراسات الكوفة، العدد ٣٨، المجلّد ١، العراق، ٢٠١٥م ، ص١٢.
[43] الأصفهاني: الأغاني، ٢٠/١٣٢.
[44] المرجع السّابق، ٢٠/١٢٠.

ثبت المصادر والمراجع

١- آل كاشف الغطاء، الإمام الشّيخ محمّد الحسين: أصل الشّيعة وأصولها / مقارنة مع المذاهب الأربعة /، دار الأضواء، ط١، ١٩٩٠م، لبنان .

٢- جاسم، ستّار عبد الله: شعر دعبل الخزاعي بين توهّج العاطفة وعمق الانتماء، مجلّة مركز دراسات الكوفة، العدد ٣٨، المجلّد ١، العراق، ٢٠١٥م.

٣- الجنوبي، فاروق: آل البيت عليهم السّلام في شعر دعبل الخزاعي، مجلّة أهل البيت عليهم السّلام، عدد٣، العراق، كربلاء، ٢٠٢٣ .

٤- الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١، ١٩٩٣م .

٥- الخزاعي، دعبل: شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ط٢، مزيدة ومعدّلة، ١٩٨٣م .

٦- الذّهبي، شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق: علي محمّد البجّاوي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت – لبنان، ط١، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٣ م .

٧- سعدي، عايدة؛ أبو لبوس، جميلة: تجليّات الالتزام في تائيّة دعبل الخزاعي، الجزائر، مجلد ٩، عدد٢، ٢٠٢٢م .

٨- ضيف، شوقي: العصر العبّاسي الأوّل، دار المعارف، مصر، ط١٦، ١٩٦٦م .

٩- عبد الواحد، شيماء: التّمثيل الفنّي للسّرديّة الكبرى للشّيعة، التّائيّة الكبرى أنموذجاً، مجلّة كلّيّة الآداب، جامعة بني سويف، مصر، العدد٦٣، أبريل-يونيو ٢٠٢٢م .

١٠-العسقلاني، ابن حجر: **لسان الميزان**. تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م .

١١-عمراني، عيسى: المعجم الجامع للأعلام وأصحاب الأقلام، جسور الجزائر، ط٢، ٢٠٠٩م .

١٢-أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين: الأغاني، تحقيق: د. إحسان عبّاس، د. إبراهيم السّعافين، أ. بكر عبّاس، دار صادر، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

١٣-كنعان، جرجس: حديث الشّهر / دعبل الخزاعي /، العدد٣، د.ت، مطبعة الهلال، بغداد.

١٤-المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦ هـ): مروج الذّهب ومعادن الجوهر، اعتنى به كمال حسن مرعي، المكتبة العصريّة، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .

١٥-معروف، يحيى: شخصيّة دعبل الخزاعي من خلال التّناقضات، مجلة إضاءات نقديّة (فصليّة محكّمة)، السّنة الثّانية، عدد٨، كانون أول، ٢٠١٢.

١٦-مكي، أحمد: شاعر آل البيت دعبل بن علي الخزاعي - حياته وشعره، تحقيق: عبد القادر حافظ، الجامعة اللبنانيّة، بيروت- لبنان، ١٩٧٣م .

١٧-اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزّمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.